

للشيخ الإمام عمدة المؤرخين وعين المتحدثين تقي الدين

أحمد بن علي المقريزي

قدم له

عبد القادر شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف





تجريد التوحيد المفيد

للشيخ الإمام عمدة المؤرخين وعين المحدثين تقي الدين

أحمد بن علي المقريزي

المتوفى سنة ٨٤٥هـ

قدم له

عبدالقادر بن شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية سابقًا

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف



ⓒ عبدالقادر شيبة الحمد، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقريزي، تقي الدين أحمد علي

تجريد التوحيد المفيد./ تقي الدين أحمد علي المقريزي.-

الرياض، ١٤٣١هـ

٦٤ ص، ١٤× ٢١ سم

ردمك: ٤-٦٣٣١- ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١-التوحيد أ. العنوان

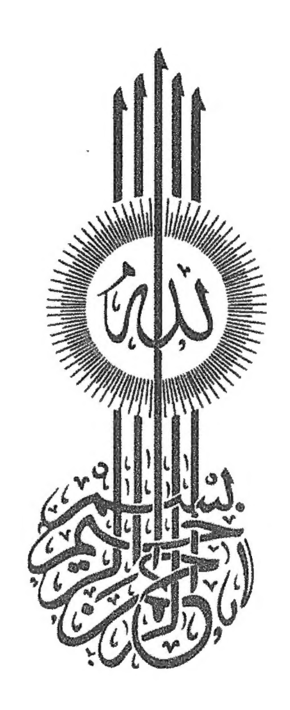
ديوي ٢٤٠ ١٤٣١/٩٣٧٦

رقم الإيداع: ١٤٣١/٩٣٧٦

ردمك: ٤-٦٣٣١- ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م











تعريف بالكتاب

التوحيد أصل الدين، وأساس العبادة، به جاءت جميع الرسالات، وأول ما يدعو إليه المرسلون، ومن أجله خلق الله الجن والإنس.

ونقيضه الشرك بالله، وقد أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

والتوحيد إفراد الله تعالى بالعبادة، وتخصيصه بالألوهية، والإيمان بأسمائه وصفاته، والإقرار بربوبيته وملكه وحكمه، وأن يكون لله الأمرُ كما أن له الخلقَ.

ولخطر التوحيد وعظم شأنه، قد أكبّ العلماء قديماً وحديثًا على التأليف فيه وبيان أسسه وأركانه.

بيد أن كثيراً من الكتب التي أُلِّفت فيه، سلك أصحابها طريق أهل الجدل الكلامي، واقتصروا فيها على نوع من أنواع

التوحيد هو توحيد الربوبية، أعني الاعتراف برب واحد، يرزق ويخلق ويحيي ويميت. ولم يتعرضوا لتوحيد الألوهية، أعني توحيد العبادة، وإن يكن توحيد الربوبية هو الأساس لتوحيد الألوهية، فإن توحيد الربوبية قد أقرّ به المشركون ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ومع هذا لم ينفعهم هذا التوحيد؛ لأنهم اعترفوا بالله ولم يخصوه بالعبادة، التي هي توحيد الألوهية، على أنه كلّ من وَحَّد الألوهية فقد وَحَّد الربوبية، وليس كل من وَحَّد الربوبيةَ قد وَحَّد الألوهية.

لذلك كان الدين الخالص، والتوحيد الحق حريًا بأن يقوم بعض الأئمة المهديين بتحقيقه وتجريده.

وكان من بين ما أُلِّف من الكتب على هذا الطراز كتاب (تجريد التوحيد المفيد) للعلامة تقي الدين المقريزي.

وقد بسط فيه رحمه الله – وأسكنه الفردوس الأعلى– أنواع التوحيد، وبيَّن فيه شرك الأمم، وأنه نوعان: شرك في الألوهية، وشرك في الربوبية. وأوضح أحوال الناس في عبادة



الله تعالى والاستعانة به، وأن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقًا أربعة، فهم أربعة أصناف.

وقد بنى المؤلف هذا السفر الكريم على حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

وسيجد طلاب الهدى، الخير والبرَّ في هذه الرسالة -إن شاء الله تعالى- فهي روضة دمثة يتفيئون ظلالها، ويجتنون ثمارها. والله وحده المستعان.






www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة





ترجمة المؤلف

نسبه ومولده:

هو الشيخ الإمام تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر ابن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبدالصمد المقريزي (وهي نسبة لحارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة) أصله من بعلبك، ونشأ بالقاهرة - فهو مصري المولد والدار والوفاة - الإمام العالم البارع عمدة المؤرخين وعين المحدثين.

وقد ولد سنة ست وستين وسبع مئة من الهجرة؛ سنة ٧٦٦هـ.

نشأته وشيوخه وتلاميذه:

نشأ بالقاهرة، وتفقه على مذهب الحنفية ومذهب الشافعية، وله بعض الصلة بمذهب الحنابلة، فقد كان أبوه وجدّه لأبيه من فقهاء الحنابلة، وكان جدّه لأمه العلامة شمس الدين محمد ابن الصايغ حنفياً.

وقد سمع الكثير من البرهان النشاوري، والبرهان الآمدي، والسراج البلقيني، والحافظ زين الدين العراقي.

وسمع بمكة من ابن سكر وغيره، وقد أجازه الشيخ شهاب الدين الأذرعي، والجمال الأسنوي وغيرهما.

وقد تتلمذ له ابن تغربردي، وقال: قرأت على المقريزي كثيراً من مصنفاته، وكان يرجع إلى قولي فيما أذكر له من الصواب، وأجاز لي ما تجوّز له، وعنه روايته من مصنفات. وكلام ابن تغربردي هذا يدلنا على خلق فاضل يتخلق به المقريزي، وأنه كان رحمه الله رجّاعاً إلى الحق، يدور معه حيث دار.

علومه وفنونه:

كان علماً من الأعلام، حافظاً ضابطًا، مولعًا بالتاريخ، معظماً في الدول، وقد وُلّي حسبة القاهرة غير مرة، وعرض عليه قضاء دمشق فأبى، وكتب الكثير بخطه، وانتقى وحصل الفوائد، واشتهر ذكره في حياته وبعد موته، في التاريخ وغيره، حتى صار يضرب به المثل. وكان منقطعاً في داره، ملازماً للعبادة، قل أن يتردد لأحد إلا لضرورة.

مؤلفاته:

١ - (**إمتاع الأسماع فيما للنبي ﷺ من الحفدة والمتاع**) في ستة مجلدات. وهو كتاب نفيس جدًا، وقد طبع بالقاهرة طباعة أنيقة.

٢ - (**الخبر عن البشر**) ذكر فيه القبائل لأجل نسب النبي ﷺ، في أربع مجلدات، وعمل له مقدمة في مجلد.

٣ - (**اتعاظ الحنفاء، بأخبار الأئمة الخلفاء**).

٤ - (**السلوك في معرفة دول الملوك**) في عدة مجلدات، يشتمل على ذكر الحوادث إلى يوم موته. قال ابن تغربردي: وقد ذيلت عليه في حياة المصنف من سنة أربعين وثمان مئة وسميته: (حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور). ولم ألتزم فيه ترتيبه.

٥ - (**درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**) ذكر فيه من مات بعد مولده إلى يوم وفاته.

٦ - (**المواعظ والاعتبار، في ذكر الخطط والآثار**) في عدة مجلدات، وهو في غاية الحسن.

٧ - (**مجمع الفرائد ومنبع الفوائد**) كمل منه نحو الثلاثين مجلداً كالتذكرة.

٨ - (**تجريد التوحيد المفيد**) وهو هذا.

وله غير ذلك من المصنفات العديدة، النافعة المفيدة.

وفاته:

وتوفي يوم الخميس سادس عشر من شهر رمضان سنة ٨٤٥هـ، ودفن بالقاهرة.





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد. فهذا كتاب جم الفوائد، بديع الفرايد، ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة.

سميته (تجريد التوحيد المفيد)، والله أسأل العون على العمل به بمنّه وكرمه.

اعلم أن الله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء ومالكه، وإلهه؛ فالرب مصدر ربَّ يربُّ ربًا فهو رابٌّ. فمعنى ربُّ العالمين رابُّ العالمين، فإن الربَّ سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لعباده القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفّل بصلاحهم من خلق ورزق وإصلاح ودين ودنيا.

والإلهية: كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً مألوهاً، ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والإخبات والتوبة والنذر والطاعة والطلب والتوكل، ونحو هذه الأشياء. فإن التوحيد

حقيقته أن ترى الأمور كلَّها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى.

وهذا المقام يثمر التوكل وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله والتسليم لحكمه. وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تعالى والعبادة والتأله من عباده له سبحانه، كما أن الرحمة هي الوسيلة بينهم وبينه سبحانه.

واعلم أن أنفس الأعمال وأجلّها قدراً توحيد الله تعالى، غير أن التوحيد له قشران: أن تقول بلسانك: لا إله إلا الله. ويسمى هذا القول توحيداً، وهو مناقض التثليث الذي يعتقده النصارى. وهذا التوحيد يصدر أيضاً من المنافق الذي يخالف سرّه جهره.

والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به.

وهذا هو توحيد عامة الناس.

ولباب التوحيد: أن يرى الأمور كلها لله تعالى، ثم يقطع الالتفات عن الوسائط، وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره.

ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

وإذا تأمّلت عرفت أن عابدالصنم لم يعبده، إنما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه، فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها باتباع الهوى، ويخرج عن هذا التوحيد السخط عن الخلق والالتفات إليهم، فإن من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه، وهذا التوحيد مقام الصديقين.

ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فلما سوّوا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين. كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يسوون به غيره. وقال تعالى:

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ وقد علم الله سبحانه كيفية مباينة الشرك في توحيد الإلهية، وأنه بإفراده تعالى وليًا وحكماً ورباً. فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلا ولي ولا حكم ولا ربَّ إلا الله الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته ولو وحّد ربوبيته، فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها.

وتوحيد الإلهية مَفْرق الطرق بين المؤمنين والكافرين والمشركين.

ولهذا كانت كلمة الإسلام: لا إله إلا الله. ولو قال: لا رب إلا الله لما أجزأه عند المحققين، فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد.

ولهذا كان أصله الإله، كما هو قول سيبويه، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذّ منهم، وبهذا الاعتبار الذي قررنا به الإله وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه كالله، هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى

والصفات العليا، وهو الذي ينكره المشركون. ويحتجّ الرب سبحانه عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ فأبان سبحانه بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقفون في إثبات توحيد الإلهية لا توحيد الربوبية، على أن منهم من أشرك في الربوبية، كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

وبالجملة فهو تعالى يحتج على منكري الإلهية بإثباتهم الربوبية.

والملك: هو الآمر الناهي، لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيته، ويتركهم سدى معطلين لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون، فإن الملك هو الآمر الناهي المعطي المانع الضار النافع المثيب المعاقب.

ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة: الرب والملك والإله. فإنه لما قال:

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يقال لما خلقهم: هل كلفهم وأمرهم ونهاهم؟ قيل: نعم. فجاء ملك الناس فأثبت الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾. فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان رباً موجداً وملكاً مكلفاً فهل يُحَب ويُرغب إليه ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟ قيل: إله الناس، أي مألوههم ومحبوبهم الذي لا يتوجه العبد المخلوق المكلف العابد إلا إليه، فجاءت الإلهية خاتمة وغاية وما قبلها كالتوطئة لها.

وهاتان السورتان أعظم عوذة في القرآن، وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك؛ وهو حين سُحر النبي ﷺ وخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، وأقام على ذلك أربعين يوماً كما في الصحيح. وكانت عقد السحر إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية، فانحلت بكل آية عقدة، وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإله الكامل ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا، المرغوب إليه في أن يعيذ عبده الذي يناجيه بكلامه، من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه، ثم استحب التعلق

باسم الإله في جميع المواطن التي يقال فيها أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأن اسمه الله تعالى هو الغاية للأسماء.

ولهذا كل اسم بعده لا يتعرف إلا به فتقول: الله، السلام، المؤمن، المهيمن؛ فالجلالة تعرِّف غيرها، وغيرها لا يعرِّفها.

والذين أشركوا به تعالى في الربوبية، منهم من أثبت معه خالقًا آخر، وإن لم يقولوا إله مكاف له، وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدرية. وربوبيته سبحانه للعالم الكاملة المطلقة تبطل أقوالهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال، وحقيقة قدرية المجوسية أنه تعالى ليس ربًا لأفعال الحيوان، ولا تتناولها ربوبيته، إذ كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه.

وشرك الأمم نوعان.

النوع الأول: شرك في الإلهية وشرك فى الربوبية.

فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عبَّاد الأصنام، وعبَّاد الملائكة، وعبَّاد الجن، وعبَّاد المشايخ، وعبَّاد الصالحين الأحياء منهم والأموات الذين

قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ويشفعوا لنا عنده وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة. والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته، والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده وتقبّح أهله، وتنص على أنهم أعداء الله، وجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم، وما أهلك الله تعالى أُمة من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله.

وأصله الشرك في محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ فأخبر سبحانه أن من أحب مع الله شيئًا غيره كما يحبه فقد اتخذه نداً من دونه.

وهذا على أصح القولين في الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله، وهذا هو العدل المذكور في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، والمعنى على أصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة، فيسوّون بينه وبين غيره في الحب والعبادة. وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ومعلوم قطعًا أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم، فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرّين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأنه سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه.

وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبة والعبادة، فمن أحب غير الله وخافه ورجاه، وذل له كما يحب الله تعالى ويخافه ويرجوه فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، فكيف بمن كان غير الله تعالى أتم عنده وأحب إليه وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشد سعياً منه في مرضاة الله.

فإذا كان المسوّى بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا فما الظن بهذا؟ فعياذاً بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها. وهو يظن أنه مسلم موحّد، فهذا أحد أنواع الشرك.

والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه يبطل هذا الشرك ويدحض حجج أهله، وهي أكثر من

أن يحيط بها إلا الله، بل كل ما خلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك كل ما أمر به فخلقه وأمره.

وما فطر عليه عباده وركبه فيهم من القوى شاهد بأنه الله الذي لا إله إلا هو، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحق المبين، تعالى وتقدس كما قيل:

واعجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والنوع الثاني من الشرك بالله تعالى في الربوبية، كشرك من جعل معه خالقاً آخر، كالمجوس وغيرهم. الذين يقولون بأن للعالم ربين، أحدهما خالق الخير، ويقولون له بلسان الفارسية: يزدان، والآخر خالق الشر، ويقولون له المجوس بلسانهم: أهرمن. وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس، وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعال، فهو رب كل ما تحته ومدبره، وهذا أشرّ من شرك عبّاد الأصنام والمجوس والنصارى، وهو أخبث شرك في العالم، إذ يتضمن

من التعطيل وجحد الإلهية والربوبية واستناد الخلق إلى غيره سبحانه، ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم، وشرك القدرية مختصر من هذا، وباب يدخل منه إليه.

ولهذا شبههم الصحابة ﷺ بالمجوس كما ثبت عن ابن عمر وابن عباس، وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعاً أنهم مجوس هذه الأمة، وكثيراً ما يجتمع الشركان في العبد وينفرد أحدهما عن الآخر. والقرآن الكريم، بل الكتب المنزلة من عند الله تعالى، كلها مصرحة بالرد على أهل هذا الإشراك كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنه ينفي شرك المحبة والإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية، فتضمنت الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه، لا في الأفعال ولا في الألفاظ، ولا في الإرادات؛ فالشرك به في الأفعال كالسجود لغيره سبحانه، والطواف بغير بيته المحرم. وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه تعالى في الأرض، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها، وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد

يصلى فيها، فكيف من اتخذ القبور أوثاناً تعبد من دون الله، فهذا لم يعلم معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لعن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» وفيه عنه أيضاً: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد**» وفيه أيضاً عنه ﷺ: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**» وفي مسند الإمام أحمد، وصحيح ابن حبان عنه ﷺ: «**لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**» وقال: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وقال: «**إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى**».

والناس في هذا الباب أعني زيارة القبور -ثلاثة أقسام: قوم يزورون الموتى فيدعون لهم؛ وهذه هي الزيارة الشرعية. وقوم يزورونهم يدعون بهم، فهؤلاء هم المشركون في الإلهية والمحبة، وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم، وهؤلاء هم المشركون في الربوبية.

وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية؛ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حتى نهى عن الصلاة في هذين الوقتين ذريعة إلى التشبه بعبّاد الشمس، الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح، لاتصال هذين الوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس. وأما السجود لغير الله فقد قال النبي ﷺ: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله**»، ولا ينبغي في كلام الله ورسوله، إنما يستعمل للذي هو في غاية الامتناع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

ومن الشرك بالله تعالى، المباين لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الشرك به في اللفظ، كالحلف بغيره. كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» صححه الحاكم وابن حبان، قال ابن حبان أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا عبدالله بن عمر الجعفي حدثنا عبدالرحمن بن سليمان

عن الحسن بن عبدالله النخعي عن سعيد بن عبيدة قال: «كنت عند ابن عمر فحلف رجل بالكعبة، فقال ابن عمر: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» ومن الإشراك قول القائل لأحد من الناس: ما شاء الله وشئت. كما ثبت عن النبي ﷺ: «أنه قال له رجل ما شاء وشئت. فقال: **أجعلتني لله نداً، قل ما شاء الله وحده**»: هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة، كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي السماء وأنت لي الأرض. وزن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم، وبين ما نهى عنه من «**ما شاء الله وشئت**»، ثم انظر أيها أفحش، يتبين لك أن قائلها أولى بالبعد من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ . وبالجواب من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وإنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ نداً فهذا قد جعل من لا يدانيه لله نداً.

وبالجملة فالعبادة المذكورة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هي السجود والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتوبة والنذر

والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والدعاء كل ذلك حق الله تعالى. وفي مسند الإمام «أن رجلاً أتي به النبي ﷺ قد أذنب ذنبا فلما وقف بين يديه قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال ﷺ: «**عرف الحق لأهله**» أخرجه الحاكم من حديث الحسن عن الأسود بن سريع وقال: حديث صحيح.

وأما الشرك في الإرادات والنيات: فهو البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه، فمن نوى بعمله غير الله تعالى فلم يقم بحقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الحنفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. واستمسك بهذا الأصل ورد ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه تتحقق معنى الكلمة الإلهية.

فإن قيل: المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد

تعظيمه، وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدخل بي عليه، فهو الغاية وهذه وسائل، فلم كان هذا القدر موجباً لسخط الله وغضبه، ومخلداً في النار، وموجباً لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم، وهل يجوز في العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط، أم ذلك قبيح في الشرع. والعقل يمتنع أن تأتي به شريعة من الشرائع، وما السر في كونه لا يغفر من بين سائر الذنوب؟ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾.

قلنا: الشرك شركان.

الأول: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

الثاني: وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في أسمائه وصفاته وأفعاله. أما الشرك الثاني فهو الذي فرغنا من الكلام فيه وأشرنا إليه الآن، ونشبع الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

وأما الشرك الأول فهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون في قوله ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك.

لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه معطله حق التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام.

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه.

الثاني: تعطيل الصانع عن كماله الثابت له.

الثالث: تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد، ومن هذا الشرك شرك أهل الوحدة.

ومنه شرك الملاحدة، القائلين بقدم العالم وأبديته، وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط، اقتضت إيجادها ويسمونها العقول والنفوس؛ ومنه شرك معطلة الأسماء والصفات كالجهمية والقرامطة وغلاة المعتزلة.

النوع الثاني: شرك التمثيل، وهو شرك من جعل مع الله إلهاً آخر؛ كالنصارى في المسيح، واليهود في عزير، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وإسناد حوادث الشر إلى الظلمة، وشرك القدرية المجوسية مختصر منه.

وهؤلاء أكثر مشركي العالم وهم طوائف جمة. منهم من يعبد أجزاء سماوية، ومنهم من يعبد أجزاء أرضية.

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أن إلهه من جملة الآلهة.

ومنهم من يزعم: أنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه، أقبل إليه، واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى الأعلى الفوقاني والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى، فتارة تكثر الوسائط

وتارة تقل، فإذا عرفت هذه الطوائف وعرفت اشتداد نكير الرسول ﷺ على من أشرك به تعالى في الأفعال والأقوال والإرادات، كما تقدم ذكره، انفتح لك باب الجواب عن السؤال.

فنقول: اعلم أن حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق؛ أما الخالق فإن المشرك شبّه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية؛ وهي التفرد بملك الضرّ والنفع والعطاء والمنع، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى، وسوى بين التراب ورب الأرباب، فأي فجور وذنب أعظم من هذا؟!

واعلم أن من خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص عليه بوجه من الوجوه؛ وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلاً وشرعاً وفطرة، فمن جعل ذلك لغيره فقد شبّه الغير بمن لا شبيه له، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم، أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبداً، فمن خصائص الإلهية العبودية التي لا تقوم إلا على ساق الحب والذل، فمن أعطاهما لغيره فقد شبهه بالله

تعالى في خالص حقه، وقبح هذا مستقر في العقول والفطر، لكن لما غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق واجتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، كما روى ذلك عن الله أعلم الخلق به وبخلقه، عموا عن قبح الشرك حتى ظنوه حسنًا، ومن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبهه به. ومنها التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به. ومنها الحلف باسمه، فمن حلف بغيره فقد شبهه به. ومنها حلق الرأس إلى غير ذلك. هذا في جانب التشبيه.

وأما في جانب التشبّه. فمن تعاظم وتكبّر ودعا الناس إلى إطرائه ورجائه ومخافته فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان، ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني في واحد منهما عذبته**» وإذا كان المصوّر الذي يصنع الصور بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة، فما الظن بالمتشبه بالله في الربوبية والألوهية؟ كما قال ﷺ: «**أشد الناس**

عذاباً يوم القيامة المصوّرون، يقال لهم أحيوا ما خلقتم» وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخقلوا ذرة، فليخلقوا شعيرة**» فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما.

وكذلك من تشبه به تعالى في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، كملك الملوك، وحاكم الحكام، وقاضي القضاة ونحوه، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن أخنع الأسماء عند الله رجل يسمى ملك الملوك، لا مالك إلا الله**».

وفي لفظ: «**أغيظ رجل عند الله رجل يسمى ملك الأملاك**»، وبالجملة فالتشبيه والتشبه هو حقيقة الشرك؛ ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادته، يقرّ به ذلك الغير إليه؛ فإنه مخطئ لكونه شبهه به، وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا له، والشرك منعه سبحانه حقه، فهذا قبيح عقلاً وشرعاً؛ ولذلك لم يشرع ولم يغفر لفاعله.

واعلم أن الذي ظن أن الرب لا يسمع له ولا يجيب له إلا بواسطة تطلعه على ذلك، أو تسأل ذلك منه، فقد ظن بالله ظن السوء؛ فإنه إن ظن أنه لا يعلم ولا يسمع إلا بإعلام

غيره له، وإسماعه ذلك، فهذا نفي لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبًا. وإن ظن أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يلينه ويعطفه عليهم فقد أساء الظن بأفضال ربه وبره وإحسانه، وسعة جوده. وبالجملة فأعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به.

ولهذا يتوعدهم في كتابه على إساءة الظن به أعظم وعيد، كما قال تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وقال تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فما ظنكم برب العالمين أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضروريات عباده لمن يكون باباً للحوائج ونحو ذلك. وهذا بخلاف الملوك، فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين، فأما من لا يشغله سمع عن سمع، وسبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، فما تصنع الوسائط عنده؟! فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد

ظن به أقبح الظن، ومستحيل أن يشرعه لعباده، بل ذلك ممتنع في العقول والفطر.

واعلم أن الخضوع والتأله الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح في نفسه، كما قررناه، لا سيما إذا كان ذلك المجعول عبداً للملك العظيم الرحيم القريب المجيب ومملوكًا له، كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصلح لسواي؟ فمن زعم ذلك فما قدّرني حق قدري، ولا عظّمني حق عظمتي. وبالجملة فما قدّر الله حق قدره من عبد معه من ظن أنه يوصل إليه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا

يُشۡرِكُونَ ﴾ فما قدّر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

واعلم أنك إذا تأملت جميع طوائف الضلال والبدع، وجدت أصل ضلالهم راجعاً إلى شيئين.

أحدهما: ظنهم بالله ظن السوء.

والثاني: أنهم لم يقدروا الرب حق قدره، فلم يقدره حق قدره من ظن أنه لم يرسل رسولاً، ولا أنزل كتاباً، بل ترك الخلق سدى وخلقهم عبثاً، ولا قدّره حق قدره من نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيها، وأخرجهما عن خلقه وقدرته، ولا قدر الله حق قدره أضداد هؤلاء الذين قالوا: إنه يعاقب عبده على ما لم يفعله، بل يعاقبه على فعله، سبحانه.

وإذا استحال في العقول أن يجبر السيد عبده على فعل، ثم يعاقبه عليه فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين. وقول هؤلاء شر من قول المجوس القدرية الأذلين.

ولا قدّره حق قدره من نفى رحمته ورضاه، ومحبته وغضبه، وحكمته مطلقاً وحقيقة فعله، ولم يجعل له فعلاً اختيارياً؛ بل أفعالـه مفعولات منفصلة عنه، ولا قدّره حق قدره من جعل لـه صاحبة وولداً، وجعله يحل في مخلوقاته أو جعله عين هذا الوجـود، ولا قدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسـوله وأهل بيتـه وجعل فيهم الملك، ووضع أولياء رسـوله وأهل بيتـه، وهذا يتضمن غاية القـدح في الرب، تعالى الله عن قول الرافضة، وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في حق رب العالمين أنه أرسـل ملكاً ظالماً، فادعـى النبوة وكذب على الله ومكـث زمنًا طويلاً يقول: أمـرني ربي بكذا، ونهاني عن كذا، ويسـتبيح دماء أبناء الله وأحبائه، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويقيم الأدلـة والمعجزات على صدقه، ويقبـل بقلوب الخلق وأجسـادهم إليه، ويقيم دولته على الظهـور والزيادة، ويذل أعـداءه أكثر من ثـمان مئة عام. فوازن بين قول هؤلاء، وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين سواء.

ولا قـدّره من زعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور، ليبين لعبـاده الذي كانوا فيه يختلفون، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وبالجملة فهذا باب واسع.

والمقصود: أن كل من عبد مع الله غيره، فإنما عبد شيطاناً، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فما عبد أحد أحداً من بني آدم كائنًا من كان، إلا وقد وقعت عبادته للشيطان؛ فيستمتع العابد في تعظيمه له، وإشراكه مع الله تعالى؛ وذلك غاية رضى الشيطان.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، أي من إغوائهم وإضلالهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ الآية.

فهذه إشارة لطيفة، إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله تعالى، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه موجب للخلود في العذاب العظيم، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه فقط، بل يستحيل على الله أن يشرع لعباده إلهًا غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله.

واعلـم أن النـاس في عبـادة الله والاسـتعانة به أقسـام؛ أجلّها وأفضلها أهل العبادة، والاسـتعانة بالله عليها، فعبادة الله غايـة مرادهـم، وطلبهم منـه أن يعينهم عليهـا ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم؛ ولهذا كان أفضل ما يسـأل الرب تعـالى الإعانة على مرضاته، وهـو الذي علمه النبي ﷺ لمعاذ ابـن جبل فقال: «**يا معـاذ، والله إني أحبك، فلا تدع أن تقول في دبـر كل صلاة: اللهم أعنِّي على ذكرك وشـكرك وحسـن عبادتك**» فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته تعالى.

ويقابـل هـؤلاء القسـم الثـاني المعرضـون عـن عبادته والاسـتعانة بـه، فـلا عبادة لهـم ولا استعانة، بل إن سـأله أحدهـم واسـتعان به فعـلى حظوظـه وشـهواته، والله تعالى يسأله من في السموات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، فيمد هـؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلق الله تعـالى إبليس، ومع هذا أجاب سـؤاله وقضى حاجته ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا على مرضاته كانت زيادة في شـقوته وبعده، وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به، على ما لم يكن عوناً له على طاعته، كان سـؤاله مبعداً عـن الله، فليتدبر العاقل هـذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه، بل قد

يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه، ويكون منعه منها حماية له وصيانة، والمعصوم من عصمه الله. والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر، إذا رآه سبحانه يقضي حوائج غيره، يسيئ ظنه به تعالى، وقلبه محشو بذلك، وهو لا يشعر، وإمارة ذلك حمله على الأقدار وعتابه في الباطن لها.

ولقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ كلا أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ ولكن ابتلاء مني وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه عنه وأخوله لغيره، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذاك من هوانه عليّ، ولكن ابتلاء مني وامتحان أيصبر فأعطيه أضعاف ما فاته، أم يسخط فيكون حظه السخط؟

وبالجملة: فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق، وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على

الكافر لا لكرامته ويقتّر على المؤمن لا لهوانه عليه، وإنما يكرم سبحانه من يكرم من عباده بأن يوفقه لمعرفته ومحبته وعبادته واستعانته، فغاية سعادة الأبد في عبادة الله وحده والاستعانة به عليها.

- **القسم الثالث**: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان:

أهل القدر القائلون بأنه سبحانه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلآت وسلامتها، وتعريف الطريق وإرسال الرسول، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعدها إعانة مقدورة يسأل إياها، وهؤلاء مخذولون موكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذَّب بقدره نقض توحيده».

النوع الثاني: من لهم عبادة وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا

تأثير لـه، وكالمعدوم الذي لا وجود لـه، وإن القدر كالروح المحرك لها، والمعوِّل على المحرّك الأول، فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فقلَّ نصيبهم من الاستعانة، وهؤلاء لهم نصيب من التصرف بحسب استعانتهم وتوكلهم، ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه لأزاله.

فإن قيل: فما حقيقة الاستعانة عملاً؟

قلنا: هي التي يعبّر عنها بالتوكل، وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله وتفرده بالخلق والأمر والتدبير والضر والنفع، وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فتوجب اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وثقة به، فتصير نسبة العبد إليه تعالى كنسبة الطفل إلى أبوية فيما ينو به من رغبته ورهبته، فلو دهمه ما عسى أن يدهمه من الآفات لا يلتجئ إلى غيرهما، فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التقوى، كانت له العاقبة الحميدة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.

• **القسم الرابع**: من له استعانة بلا عبادة، وتلك حالة من شهد تفرد الله بالضر والنفع، ولم يدر ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه في حظوظه فأسعفه بها، وهذا لا عاقبة له، سواء كانت أموالاً أو رياسات أو جاهاً عند الخلق، أو نحو ذلك، فذلك حظه من دنياه وآخرته.

واعلم أن العبد لا يكون متحققًا بعبادة الله وحده إلا بأصلين.

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

الثاني: إخلاص العبودية لله تعالى.

والناس في هذين الأصلين أربعة أقسام.

أهل الإخلاص والمتابعة: فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم ومنعهم وإعطاؤهم وحبهم وبغضهم، كل ذلك لله، لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكوراً، عدوا الناس كأصحاب القبور، لا يملكون ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإنه لا يعامل أحداً من الخلق إلا لجهله بالله تعالى، وجهله بالخلق، والإخلاص هو العمل الذي لا يقبل الله من

عامل عملاً صواباً عارياً منه، وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وأحسن العمل أخلصه وأصوبه، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ، وهذا هو العمل الصالح المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو العمل الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وهو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**» وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلا بعدًا من الله تعالى، فإنه تعالى لا يعبد إلا بأمره، لا بالأهواء والآراء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة له: وهؤلاء شرار الخلق. وهم المتزينون بأعمال الخير يراؤن بها الناس، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم، من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرياء والسمعة، ويحبون أن يحمدوا بها

لم يفعلوا، وفي أضراب هؤلاء نزل قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر، كحال العباد المنتسبين إلى الزهد والفقر. وكل من عبدالله على غير مراده. والشأن أنه ليس في عبادة الله كما أراد الله، ومنهم من يمكث في خلواته تاركاً للجمعة، ويرى ذلك قربة، ويرى مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم الفطر قربة، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله تعالى، كطاعات المرائي، وكالرجل يقاتل رياء وسمعة، وحمية وشجاعة وللمغنم، ويحج ليقال، ويقرأ ليقال، ويعلم ويؤلف ليقال، فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾.

فلم يؤمر الناس إلا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها، والقائم بهما هو أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها، وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق، وهم في ذلك أربعة أصناف.

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها، أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التعبد، والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثاً ليس له أصل «أفضل العباد أحمزها» أي أصعبها وأشقها، وهؤلاء هم أرباب المجاهدات والجور على النفوس. قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك؛ إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الراحة. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

والصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها، التجرد والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها وعدم الاكتراث، لما هو منها. ثم هؤلاء قسمان. فعوامهم ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه. قالوا: وهو أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم رأوا هذا مقصوداً لغيره، وأن مقصودهم به عكوف القلب على الله تعالى والاستغراق في محبته والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أفضل العبادات دوام ذكره بالقلب واللسان، ثم هؤلاء قسمان؛ فالعارفون إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرقهم وأذهب جمعهم، والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيته، فإذا جاء ما يعرفونه عن الله، لم يلتفتوا إليه ويقولون:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً

فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ثم هؤلاء أيضاً قسمان:

منهم: من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم: من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته، والحق أن الجمعية حظ القلب، وإجابة داعي الله حق الرب، فمن آثر حق نفسه على حق ربه فليس في شيء.

الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقير أو الاشتغال بمصالح الناس، وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالجاه والمال والنفع، أفضل؛ لقوله ﷺ: «**الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**»، قالوا: وعمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعد إلى الغير، فأين أحدهما من الآخر. ولهذا كان فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وقد قال ﷺ لعلي: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**»، وقال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً**»، وقال: «**إن الله وملائكته يصلون على معلّمي الخير**»، وقال: «**إن العالم يستغفر له من في السموات والأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها**»، قالوا: وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي تسبب فيه. والأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع

والتعبّد وترك مخالطة الناس، ورأى هؤلاء أن التفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعية على الله بدون ذلك. قالوا: ومن ذلك العلم والتعليم، ونحو هذه الأمور الفاضلة.

الصنف الرابع: قالوا: أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب سبحانه، واشتغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل من إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف: القيام بحقه والاشتغال به، والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدعاء. والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن، والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى المسجد وإن بعد. والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن، والأفضل في السفر: مساعدة المحتاج وإعانة الرفقة، وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره والعزم على تنفيذ أوامره، وأعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت وقوف عرفة: الاجتهاد في التضرّع والدعاء والذكر، والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبّد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، وهو أفضل من الجهاد غير المتعيّن. والأفضل في العشر الأواخر من رمضان: لزوم المساجد والخلوة فيها مع الاعتكاف، والإعراض عن مخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء. والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم: عيادته وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على جمعيتك، والأفضل في وقت نزول النوازل وإيذاء الناس لك: الصبر والتحمّل مع خلطتك لهم، والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على أذاهم، وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله وقلّله فخلطتهم خير من اعتزالهم.

وهـؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبـد المقيـد، فمتى خرج أحدهم من الفـرع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعـالى، إن رأيت العلماء رأيته معهم وكذلك في الذاكرين والمتصدقين وأرباب الجمعية، ووقوف القلب على الله، فهذا هـو العبد الجامح السـائر إلى الله في كل طريـق، والوافد إليه مع كل فريق.

وأسـتحضر حديـث أبي بكـر الصديـق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقـول النبي ﷺ بحضوره «**هل منكم أحد أطعم اليوم مسكينا؟** قال أبـو بكر: أنـا. قال: **هل منكم أحد أصبـح اليوم صائماً؟** قال أبـو بكر: أنا. قال: **هل منكم أحد عاد اليوم مريضاً؟** قال أبو بكر: أنا. قال: **هل منكم أحد تبع اليوم جنازة؟** قال أبو بكر: أنا». الحديـث. هذا الحديث روي من طريـق عبدالغني ابن أبي عقيل حدثنا نعيم بن سـالم عن أنـس بن مالك قال: كان النبـي ﷺ في جماعة من أصحابه فقال: «**من صام اليوم؟** قال

أبو بكر: أنا، قال: **من عاد اليوم مريضاً؟** قال أبو بكر: أنا، قال: **من شهد اليوم جنازة؟** قال أبو بكر: أنا، قال: **وجبت لك الجنة**»، ونعيم وإن تكلم فيه لكن تابعه سلم بن وردان.

وله أصل صحيح من حديث مالك عن محمد بن شهاب عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة يا عبدالله، هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة نودي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان.** فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما على من يدعى من هذه الأبواب كلها ضرورة. فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها؟ قال: **نعم وأرجو أن تكون منهم**».

هكذا رواه عن مالك موصولاً مسنداً يحيى بن يحيى ومعن بن عيسى وعبدالله بن مبارك. ورواه يحيى بن بكير وعبدالله بن يوسف عن مالك عن ابن شهاب عن حميد مرسلا وليس هو عند القعنبي لا مرسلًا، ولا مسندًا.

ومعنى قوله: من أنفق زوجين: يعني شيئين من نوع واحد، نحو درهمين أو دينارين أو فرسين أو قميصين. وكذلك من صلى ركعتين أو مشى في سبيل الله خطوتين، أو صام يومين ونحو ذلك، وإنما أراد والله أعلم: أقل التكرار وأقل وجود المداومة على العمل من أعمال البر؛ لأن الاثنين أقل الجمع، فهذا كالغيث أين وقع نفع. صحب الله بلا خلق، وصحب الخلق بلا نفس، إذا كان منع الله عزل الخلائق من البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط. وتخلّى عنها فما أعذبه بين الناس، وما أشد وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه.

واعلم أن للناس في منفعة العبادة وحكمتها، ومقصودها طرائق، وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل الذين يردون الأمر إلى نفس المشيئة وصرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن يكون سبباً لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سبباً لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة. كما قالوا في الخلق: لم يخلق لغاية ولا

لعلة هي المقصودة به ولا لحكمة تعود إليه منه، وليس في المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها، وليس في النار سبب الإحراق، ولا في الماء قوة الإغراق، ولا التبريد. وهكذا الأمر عندهم سواء لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المحظور والمأمور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا، ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حسنه، ولا بالمنهي عنه صفة تقتضي قبحه. ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة، وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ولا يتنعّمون بها، ولهذا يسمون الصلاة والصيام والزكاة والحج والتوحيد والإخلاص، ونحو ذلك تكاليف، أي كلفوا بها، ولو سمى مدعي محبة ملك من الملوك أو غيره، ما يأمر به تكليفًا لم يعد محباً له وأول من صدرت عنه المقالة الجعد بن درهم.

الصنف الثاني: القدرية الذين يثبتون نوعاً من الحكمة والتعليل لا يقوم بالرب، ولا يرجع إليه، بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته، فعندهم أن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء

الأجير أجره. قالوا: ولهذا يجعلها سبحانه عوضًا كقوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم﴾ وفي الصحيح: «**إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها**» قالوا: وقد سماها جزاء وأجراً وثوابًا؛ لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه. قالوا: ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى، وهاتان الطائفتان متقابلتان؛ فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء ألبتة. وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في الطاعة، وينعم من أفنى عمره في مخالفته وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل راجع إلى محض المشيئة.

والقدرية أوجبت عليه سبحانه رعاية المصالح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله، فيه تنقيص باحتمال منّة الصدقة عليه بلا ثمن، فجعلوا تفضله سبحانه على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، وإعطاء ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد من أن يعطيه فضلًا منه بلا عمل، فهؤلاء والذين لم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء ألبتة طائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم.

وهو أن الأعمال أسباب موصولة إلى الثواب، والأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله، وليست قدرًا لجزائه وثوابه. بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكراً على أحد أجزاء القليلة من نعمه، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ مع قوله ﷺ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنة بالأعمال، ولا تنافي بينهما؛ لأن تـوارد النفي والإثبات ليس على محل واحد، فالنفي باء الثمنية، واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال رداً على القدرية المجوسية، التي زعمت أن الفضل بالثواب ابتداء متضمن تنقيصاً. والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببية ردًا على القدرية الجبرية الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها وإنما غايتها أن تكون إمارة.

والسنة النبوية: هي أن عموم قدرته لاينافي ربط الأسباب بالمسببات، وارتباطها بها، وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعاً من الحق، فإنها ارتكبت لأجله نوعاً من الباطل بل أنواعاً، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها، وخروج قواها من قوى النفس السبعية والبهيمية، فلو عطلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم؛ فالعبادة تخرجها مشابهة للعقول، فتصير قابلة لانتقاش صور المعارف فيها، وهذا يقوله طائفتان، إحداهما من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم الفاعل المختار، والطائفة الثانية من تفلسف من صوفية الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس للمعارف العقلية ومخالفة العوائد، ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا بهذا المعنى؛ فإذا حصل لها ذلك بقي متحيرًا في حفظ أوراده، والاشتغال بالوارد عنها،

ومنهم من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها، وهم صنفان أيضاً؛ أحدهما: من يقول بوجوبها حفظاً للقانون وضبطاً للناموس. والآخرون يوجبونها حفظًا للوارد وخوفًا من تدرج النفس بمفارقتها إلى حالها الأولى من البهيمية؛ فهذه نهاية إقدامهم في حكمة العبادة، وما شرعت لأجله. وتكاد تجد في كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاثة أو مجموعها.

والصنف الرابع: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر، والقدر والسبب، فعندهم أن سر العبادة وغايتها مبني على معرفة حقيقة الإلهية، ومعنى كونه سبحانه إلهاً، وأن العبادة موجب الإلهية وأثرها، ومقتضاها وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود، فعندهم من قام بمعرفتها على نحو الذي فسرناها به لغة وشرعاً، مصدراً وموردًا، استقام له معرفة حكمة العبادة وغايتها، وعلم أنها هي الغاية التي خُلق لها العباد، ولها أُرسلت الرسل، وأنزلت

الكتب، وخلقت الجنة والنار. وقد صرح سبحانه بذلك في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فالعبادة هي التي ما وجدت الخلائق كلها إلا لأجلها، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي هملا، قال الشافعي: لا يُؤمر ولا يُنهى. وقال غيره: لا يُثاب ولا يُعاقب على الأمر. وهو طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية. ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فأخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فإذا كانت السموات والأرض إنما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق فكيف يقال: لا غاية له، ولا حكمة مقصودة. أو أن ذلك لمجرد استئجار العمال حتى لا يتكرر عليهم الثواب بالمنة، أو أن ذلك لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتباطاً لمخالفة العوائد.

وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي. علم أن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره. فأصل العبادة محبة الله تعالى، بل إفراده بالمحبة، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر والنهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة؛ ولهذا جعل سبحانه اتباع رسوله ﷺ علمًا عليها وشاهدًا لها، كما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله تعالى، وشرطًا لمحبة الله لهم.

ووجود المشروط دون تحقق شرطه ممتنع، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول ﷺ. ولا يكفي ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهو الإشراك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ الآية.

وكل من قدم قول غير الله على قول الله، أو حكم به، أو حاكم إليه فليس ممن أحبه، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد وحكمه وطاعته على قوله؛ ظنًا منه أنه لا يأمر ولا يحكم. ولا يقول إلا ما قال الرسول ﷺ فيطيعه ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله؛ لذلك فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك، وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتبعه أولى به مطلقاً، أو في بعض الأمور، كمسألة معينة، ولم يلتفت إلى قول الرسول ﷺ، ولا إلى من هو أولى به، فهذا يخاف عليه، وكل ما يتعلل به من عدم العلم وعدم الفهم، أو عدم إعطاء الله الفقه في الدين، والاحتجاج بالأشباه والنظائر، أو بأن ذلك المتقدم كان أعلم بمراده ﷺ، فهي كلها تعللات لا تفيد هذا مع الإقرار بجواز الخطأ على غير المعصوم ﷺ، إلا أن ينازع في هذه القاعدة فتسقط مكالمته، وهو داخل تحت الوعيد.

فإن استحل مع ذلك سبّ من خالفه وقرض عرضه ودينه بلسانه، أو انتقل من هذا إلى عقوبته، أو السعي في أذاه، فهو من الظلمة المعتدين ونواب المفسدين.

واعلم أن العبادة أربع قواعد.

وهي التحقيق بما يحب الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب العبادة حقًا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاده ما أخبر الله عن نفسه، أو أخبر رسوله عن ربه، من أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته ولقائه، وما أشبه ذلك.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعاء إليه، والذب وتبيين البدع المخالفة له، والقيام بذكره تعالى وتبليغ أمره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة والخوف، والرجاء والإخلاص، والصبر على أوامره ونواهيه وأقداره، والرضى به وله وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه والطمأنينة. ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح.

وأما أعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز من الخلق، ونحو

ذلك، فقول العبد في صلاته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام أحكام هذه الأربعة، وإقرارها، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب الإعانة عليها والتوفيق لها، وقوله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن للأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السائرين إلى الله، والله سبحانه الموفق بمنه وكرمه. والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده. وآله وصحبه ووارثيه وحزبه.

آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سنة ١٣٠٣هـ.





التوحيد أصل الدين، وأساس العبادة، به جاءت جميع الرسالات، وأول ما يدعو إليه المرسلون، ومن أجله خلق الله الجن والإنس.

ونقيضه الشرك بالله، وقد أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه:

﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ولخطر التوحيد وعظم شأنه، قد أكبّ العلماء قديمًا وحديثًا على التأليف فيه وبيان أسسه وأركانه.

وقد بسط المؤلف - رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى- أنواع التوحيد، وبيّن فيه شرك الأمم، وأنه نوعان: شرك في الألوهية، وشرك في الربوبية وأوضح أحوال الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به، وأن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقًا أربعة، فهم أربعة أصناف.

وسيجد طلاب الهدى الخير والبرّ في هذه الرسالة -إن شاء الله تعالى-، فهي روضة دمثة يتفيئون ظلالها، ويجتنون ثمارها.

والله وحده المستعان.

عبدالقادر شيبة الحمد

ISBN:978-603-006-331-4
9786030063314

موضوع الكتاب: التوحيد

هذا الكتاب منشور في

